٤ ـ فساد الطريقة
في كتاب النثر الفني
للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

سوء الفهم أيضاً

ليس الغريب أن يخطىء صاحب الكتاب ذلك الخطأ الشنيع في فهم الواضح من آيات القرآن الكريم كآية سورة هود التي حللنا فهمه إياها في كلمتنا السالفة ، فإن خطأه ذلك إن هو إلا نتيجة لرأيه في القرآن ، ومصداقاً لقوله تعالى : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » لكن الغريب أن يخطىء في فهم نصوص ذكرها من كلام الناس خطأ نذكر لك الآن منه صنوفاً

أراد صاحب الكتاب أن يبين أن صحة المعنى لا تكفي لبلاغة الكلام ؛ فزعم أنه « لا يوجد أصدق من قول من قال :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

وتساءل : ولكن من الذي يقيم وزناً لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها »

والتفاهة ليست في صدق البيت ولكن في الفهم الذي لا يدرك أن سر تفاهته هو في الخلف الذي بين شطريه . ذلك أن البيت في صميمه بيت تشبيه ، والتشبيه يتطلب مشبهاً به مغايراً للمشبه ، والقارىء يتوقع هذه المغايرة إذا قرأ الشطر الأول ؛ فإذا وجد الشطر الثاني قد كذب هذا التوقع بجعله المشبه به عين المشبه بطل التشبيه عنده ، وهزىء بالقائل الذي لا يعرف ما هو التشبيه ، وبالبيت الذي يكذب شطر منه شطراً

فالبيت من ناحية التشبيه بيت كاذب : يعد القارىء في شطره الأول بشيء يخلفه إياه في شطره الثاني . وهذا الخلف والتضاد بين شطري البيت هو سر تفاهته . فلو حذفت منه حرف التشبيه ووضعت مكانه حرف التوكيد لزال من البيت الخلف الذي هو نوع من الكذب ، ولحل محله الصدق ، ولارتفعت قيمة البيت ارتفاعاً يجعله بمنجاة من أن يكون مثلاً مضروباً في السخرية والاستهزاء ، لكن صاحب الكتاب غبي عليه أن التفاهة التي يحسها في البيت راجعة إلى هذا النوع من الكذب فيه ، وتصور أن البيت قد بلغ من الصدق الغاية ، فدل بذلك على أنه في الحقيقة لم يفهم البيت

ونص آخر وقف صاحب الكتاب عنده موقف العاجز عن الفهم . قول للباقلاني في كتابه إعجاز القرآن يحتج به لما يراه من أن ما جاء في القرآن على هيئة السجع ليس بسجع « لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس

كل باب من الأبواب الرئيسية بقوله مثلاً عند نهاية باب الجص (انقضت أبواب الجص وأدويتها ، بحمد الله وعونه يتلوها إن شاء الله أبواب الأكلة المتولدة في جوف الجارح من الجص وغيره وبالله التوفيق)

وفي الباب الأخير الرئيسي الذي ينتهي به المخطوط تكلم المؤلف عن علاجات مختلفة لأمراض الجوارح ، ثم تكلم عن الكلب وصيده وخصائصه وأمارات الفراهية فيه وأحكامه وأدويته ، وانتقل بعد هذا إلى أدوية الفهود وذكر عنها مقتضباً وهو أدوية الفهود : اعلم أن جرب الفهود يستريها من بولها فينبغي أن يفرش الرمل تحتها حتى يصفو شعرها ولا يصيبها شيء من بولها إلا يشربه الرمل ، ويبدل الرمل من تحته كل قليل فإذا جرب فاسحق له الكبريت الأصفر ورتبه بالزيت ، واطل بدنه من الجرب فإنه يبرأ منه بإذن الله تعالى والله أعلم

ولهذا فإني أشك أن يكون هذا الكتاب كاملاً إذ ليس من المعقول أن يتكلم المؤلف عن الفهد في هذه الأسطر الممدودة بينما نجده تكلم عن بقية حيوانات الصيد وجوارحه في أبواب متعددة يستوفي البحث ، ومما يزيد في شكي هذا أن الناسخ لم يختم الباب الأخير بالجملة التي يختم بها الأبواب الرئيسية التي بعد ص ١١٦

وفي الكتاب صورتان للباز مرسومتان بالمداد الأحمر ، وهما خاليتان من كل زخرف ، الأولى رسمت تحت عنوان (باب شرح البزاة وصفتها) والثانية مرسومة بين أسطر (باب علامة صحة الجارح) . اهـ

(الموصل)

سعيد الديوه جي

كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى » وهذا كلام للباقلانى واضح ، يحدد السجع فى رأيه كما يعرفه فى كلام المستكثرين منه ، ويرى سجع القرآن يتنازعه بمخالفة هذا الحد والفصل الذى ذكر ؛ فلم يجعله من قبيله ، وافقته على ذلك أو خالفته . وقد أراد الباقلانى أن يؤكد احتجاجه لرأيه ذلك فقال كما روى صاحب الكتاب ، وهذا هو محل الاستشهاد :

« وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ . ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى »

نقل صاحب الكتاب هذا الكلام ، ودل فى الهامش على موضعه من كتاب الباقلانى ، ومضى يلخص الفكرة فيه من غير أن يلحظ أن الكلام فى الأصل ، وكما نقله غير مستقيم مع رأى الباقلانى لتداخل وقع فيه عند طبع الأصل أو عند النسخ استغلق به المعنى على القارئ ، من غير أن يدرك ذلك صاحب الكتاب فيزيل منه التداخل قبل التعليق عليه أو تلخيص الفكرة فيه . والتأمل يبين أن وجه الكلام هو كما يأتى بعد نقل كلمة واحدة مكان كلمة ، وجملة واحدة مكان جملة :

« وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون اللفظ منتظماً دون المعنى . ومتى ارتبط المعنى بالسجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى ، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره »

وقد تكون الفقرة الأخيرة كما يأتى إذا كان التبادل وقع بين فعلى الشرطيتين لا بين جوابيهما :

« ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كانت إفادة السجع كافادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى »

فهذان وجهان للكلام لا بد أن يكون واحد منهما هو ما كتب الباقلانى فى كتابه ، إذ لا يتضح معناه بغير ذلك . لكن صاحب الكتاب لم يفطن إلى ما فى الكلام الذى نقله من تداخل ، ولم يحاول أن يناقش حجة الباقلانى التى استغلقت عليه بذلك التداخل ، وقصر تلخيصه للفكرة على المعنى المتضح من كلام الباقلانى الذى نقلناه أولا ، موهماً أنه قد لخص المعنى فى الكلام كله ؛ فدل بذلك على تقصيره فى فحص الكلام وتقليبه ؛ أو على قصوره فى الفهم والتفكير

والآن ننتقل إلى مثل ثالث يتعلق لا بسجع القرآن ، ولكن بالسجع فى القرن الثالث

ذلك أن صاحب الكتاب نقل فى صفحة ٨٤ من الجزء الأول من كتابه نصاً من الجزء الأول من كتاب ضحى الإسلام هو :

« ونحن نعلم أن هذا العصر — عصر الجاحظ — لم يتكلف فيه سجع ، ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة كلها ؛ وإن تكلف فيه سجع ففقرة أو فقرتان . فأما كتاب كله سجع فهذا ما لا نعرفه فى هذا العصر »

وواضح أن الإنكار الذى فى هذا النص منصب فى محيه على أن يكون فى عصر الجاحظ كتاب كله سجع ، لكن صاحب النثر الفنى غفل عن هذا أو تغافل عنه فى المناسبات الثلاث التى أشار فيها إلى رأى الأستاذ أحمد أمين

فى المناسبة الأولى وهى التى دعته إلى ذكر ذلك النص لتخطئته استشهد على إمكان وجود كتاب مسجوع لرجل من كتاب القرن الثالث بحرص « ابن داود على وضع عناوين الفصول مسجوعة فى كتاب الزهرة » وواضح أن القرن الثالث يمتد بعد عصر الجاحظ بنحو نصف قرن ، فلو وجد فيه كتاب مسجوع لما استلزم أن يكون حتماً فى عصر الجاحظ . كذلك من الواضح أن عناوين فصول كتاب ليست هى نفس الكتاب ، فوجود العناوين كلها مسجوعة ليس معناه أن الكتاب نفسه مسجوع كله . لكن ذلك هو مبلغ فهم صاحب النثر الفنى للنص الذى أورده لصاحب ضحى الإسلام ومبلغ تخطئته إياه

وفى المناسبة الثانية يشير صاحب الكتاب إلى رأى الأستاذ احمد أمين بقوله من صفحة ٨٦ : « ولا ينبغى أن نستبعد ـ كما استبعد الأستاذ احمد أمين ـ أن توجد مؤلفات مسجوعة فى القرن الثالث ؛ فان عصرنا الحاضر ينكر السجع على المؤلفين أشد الإنكار ويراه ضرباً من التكلف الممقوت ، ومع هذا وجدت فى عصرنا مؤلفات مسجوعة ، مثل : (صهاريج اللؤلؤ) و (حديث عيسى بن هشام) وابواب من (ليالى سطيح) . وقد وقع صاحب هذا الكلام فى نفس الخطأ الذى وقع فيه آنفاً ، إذ جعل القرن الثالث هو وعصر الجاحظ سواء ، ونسب بذلك إلى أحمد أمين قولاً لم يقله فى النص الذى رواه له ، وإن كان أكبر الظن أن القرن الثالث لم يشهد بالفعل كتاباً مسجوعاً كله ؛ إن لم يكن هناك على عكس ذلك إلا أدلة صاحب الكتاب . ألا ترى أنه لا يفرق بين عصرنا هذا الذى يستنكر فيه التزام السجع والعصر الذى عاش فيه البكرى والمويلحي ؟ أفكان ع يستنكر التزامه قبل نصف قرن حين كتب ذانك ابان ، كما يستنكر ذلك الآن حتى يجعل صاحب النثر الفنى ين واحداً ، ويستدل بوجود الكتابين على وجود الضدين فى هذا العصر ؟ أم كان التزام السجع مستحسناً كل الاستحسان حين كتب ذانك الكتابان فلا يكون لصاحب النثر الفنى فيهما إذن دليل أو برهان ؟

ويقول صاحب الكتاب فى مناسبة ثالثة فى صفحة ٩٦ : « والقرن الثالث يسميه صديقنا الأستاذ أحمد أمين (عصر الجاحظ) وينفى عنه السجع ، مع أن الجاحظ يسجع ولا يخرج من السجع إلا إلى الازدواج » . أقرأت هذا ووعيته ، وأدركت الفرق بين ما ينسبه صاحب النثر الفنى إلى صاحب ضحى الإسلام هنا ، وبين النص الذى يرويه له هناك ؟ صديقه الأستاذ أحمد أمين يسمى القرن الثالث عصر الجاحظ ، وصديقه الأستاذ أحمد أمين ينفى عن القرن الثالث السجع ! وهكذا يصح فى فهم صاحب الكتاب أن يمتد عصر الجاحظ إلى سنة ٣٠٠ هـ ، لأن الجاحظ مات سنة ٢٥٥ هـ . ، وأن ينفى مؤرخ السجع عن القرن الثالث لأنه نفى وجود كتاب كله سجع فى ذلك القرن ، أو فى النصف الأول من ذلك القرن !

فقد رأيت الآن ثلاثة أوجه لفهم دكتورنا البحاثة لنص واحد لمؤلف معاصر ، ورأيت كيف يحوره ويدوره حتى صيره إلى ما رأيت وما ترى . والأمر إليك الآن فى تسمية هذا النوع من التفكير بحثاً أو تسميته عبثاً ، وفى تسمية هذا النوع من التصوير تصريفاً أو تحريفاً ، ومن النقل مسخاً أو نسخاً ، ثم فى تسميته هذا كله عجزاً عن الفهم أو اقتداراً عليه ، وصلاحاً فى الطريقة أو فساداً ؛ فإن الأمر جل عن التلاحى ، أو قل كما تشاء أن تقول

محمد أحمد الغمراوى

ظهرت لأول مرة بمناسبة العيد الألفى للفيلسوف أبى العلاء المعرى

رسالة الهنـاء

لأبى العلاء المعرى

جزءان فى سفر واحد

شرح وتحقيق الأستاذ الكبير

كامل كيلانى

الذى حبب الأدب العلائى إلى كل قارئ
كما حبب القراءة إلى كل ناشئ

الثمن ٣٥ قرشاً صاغاً ـ وللبريد ٦٣ مليما

يطلب من الناشر

دار الكتب الأهلية

بميدان الأوبرا ـ ت ٤٩٥٦١

وفى السودان من مكتبة

كردفان بالأبيض